



مكة حرمها الله تعالى / ١٤٤٥ هـ

١٣

الْبَقَاءُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا

لِلشَّيْخَةِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ بِنْتِ الشَّيْخِ
مُتَّيْلِ بْنِ هَادِي الْوَادِعِيِّ
حَفِظَهَا اللَّهُ تَعَالَى



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا هَكِّي يَا هَكِّي يَا هَكِّي
يَا هَكِّي يَا هَكِّي يَا هَكِّي
يَا هَكِّي يَا هَكِّي يَا هَكِّي

الحمد لله رب العالمين، **وصلّى الله وسلّم** على رسوله ونبيه محمّد الأمين، **والشهر** أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، **والشهر** أن محمدا عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أسأل الله العلي العظيم أن ينفعنا بهذا اللقاء، وأن يجعله من الاستعداد لدار المعاد ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾ [الشعراء].

أيها الأخوات، إن الأيام معدودة، والآجال محتومة، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)﴾ [الأعراف]،

ويقول سبحانه:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا

نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)﴾

[145: آل عمران].

وروى البخاري (1284)، ومسلم (923) عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أُرْسِلَتْ ابْنَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ: إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأَتِنَا. فَأُرْسِلَ يُقَرِّئُ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ». فَأُرْسِلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لِيَأْتِيَنَهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ، فَرَفَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الصَّبِيَّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ، قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهَا شَنٌّ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟! فَقَالَ: «هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ».

«تَتَقَعَّقُ» أي: تضطرب وتتحرك.

«فَاضَتْ عَيْنَاهُ» أي: سالت عينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدموع.

وقد عزى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم ابنته في هذا الحديث بهذه التعزية، فهذه الصيغة أفضل تعزية.

والمراد بالتعزية: التسلية على المصاب، فهذه أفضل صيغة في التعزية: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أُعْطِيَ، وَكُلُّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ».

فبيّن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم أنّ ما أعطانا الله سبحانه وتعالى هو ملك له، وما أخذ منا فهو ملك له، الملك ملك الله، والخير خير الله سبحانه وتعالى، فما أعطانا وأخذه منا من الولد، من المال، من النعم، هو ملك لله سبحانه، ففي هذا تهوين المصيبة على المصاب، وتخفيف حرارتها وألمها؛ لأن هذا الذي أخذه الله منا ملك لله ليس ملكاً لنا، فكيف نتسخط ونكره أن أخذ الله عز وجل شيئاً منا وهو ملك له؟! ونسأل الله سبحانه أن يرزقنا الإيمان بالقدر خيره وشره.

فالأجال محتومة لا تتقدم ولا تتأخر، والأيام معدودة، روى الإمام مسلم (2663) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ: اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ سَأَلْتِ اللَّهَ لِأَجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَآثَارِ مَوْطُوءَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَا يُعْجَلُ شَيْئًا مِنْهَا قَبْلَ حِلِّهِ، وَلَا يُؤَخَّرُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ حِلِّهِ، وَلَوْ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ».

فهكذا ينبغي أن يكون ديدن المؤمنات وسعيهن في الاستعاذة من عذاب النار ومن عذاب القبر، كما أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ويقول الله عز وجل ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
 الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (201) [البقرة]. وقال تعالى:
 ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
 غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66)﴾ [الفرقان]،
 ﴿غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا للكفار.

ويقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ
 فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ
 عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ
 الدَّجَالِ». رواه بهذا اللفظ الامام مسلم (588) عن أبي هريرة.

أيها الأخوات، البقاء لله سبحانه وتعالى، وقد كتب سبحانه على كل نفس بالفناء وعدم البقاء، قال عز وجل:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. [القصص: 88].

ويقول سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ

وَالْإِكْرَامِ (27)﴾ [الرحمن].

كل من على هذه الدنيا للفناء لا للبقاء، فهذه الدار الدنيا ليست لحي وطناً، دار الدنيا دار فناء لا دار بقاء، دار ممر وعبور لا دار مقر واستقرار، دار رحيل وسفر، فنحن فيها غرباء، حتى ولو كنا في أوطاننا، ﴿فَلَا تَغْرَنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (33)﴾ [لقمان].

والدنيا تغر ثم ترمي بأصحابها وتتركهم وتتخلى عنهم، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ (185)﴾ [آل عمران: 185].

ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ

الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: 34].

إن الموت ضيف عصيب يأتي على الجميع، الموت لا يأتي على الضعيف والفقير فحَسْبُ، يأتي على الجميع، الناس فيه سواء: الغني والفقير، الراعي والمرعي، الصغير والكبير، الذكر والأنثى، ما يدري إلا وقد هجم عليه الموت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَ

وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (34) [لقمان: 34].

قد يخرج من بيته، إلى مسجده فتأتي سيارة ويحصل له حادث مرور، قدر الله وما شاء فعل، ويكون هناك موته، وليس في الحساب أن يأتي ذلك الموت في تلك اللحظة.

قد يكون في تفكيره تخطيط أشياء يفعلها في ذلك اليوم، ويأتي الموت الذي لا مفر لأحد منه.

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب ... متى حُطَّ ذا عن نعشه ذاك
يركب

ولا أحد يستطيع أن يرده لا طبيب ولا قريب ولا حبيب، ﴿فَإِذَا جَاءَ
أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (34) [الأعراف: 34].

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وحتى ذروة خلق الله عز وجل وهم الأنبياء يموتون، فسبحان
الحي الذي لا يموت! ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ (58) [الفرقان].

وكان من أدعية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لَكَ
أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أُنَبِّتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ
إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ،
وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»^(١).

(١) رواه مسلم (2717) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وروى البخاري (4449) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السَّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السَّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذْهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أَلَيْسَ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَلَيْتَنِي، فَأَمَرَهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكُوعٌ أَوْ عُلبَةٌ-يَشْكُ عُمُرُ-فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى» حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ.

ونستفيد من هذا الحديث: استحباب السواك للمحتضر^(٢).

قد يقال: كيف يتسوك المحتضر؟

إنه تثبیت من الله عز وجل ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27].

(٢) المحتضر بفتح الضاد: وهو من حضره الموت. وأما المحتضر ففي

«الصحيح» (2/633): والمُحْتَضِرُ: الذي يأتي الحَضَر، وهو خلاف البادي.

ويقال في الفعل: اُحْتَضِرَ، بالضم، أي: حَضَرَهُ الموت. يراجع «القاموس» (377).

وفي مسح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وجهه بالماء؛
لتخفيف كُرْبَات الموت.

وبعد أن توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقعت مصيبة
عظيمة على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، إنها مصيبة لا أشد
منها ولا أقسى منها على قلوبهم، أشد من موت الولد، أشد من
موت الزوجة، أشد من موت الأب، كانوا يحبون رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أشد من محبتهم أنفسهم وأولادهم، وأموالهم
وأهلهم أجمعين.

وعند أن توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أبو بكر الصديق
رضي الله تعالى عنه خرج إلى مكان يُقال له: السنح في العالية،
وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: لم يمت رسول
الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم خرج أبو بكر الصديق، وكان عمر بن الخطاب يتكلم مع الصحابة، فحمد الله وأثنى عليه رضي الله تعالى عنهم، وقال: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30]، وَقَالَ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

فأيقن الصحابة رضي الله تعالى عنهم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قد توفي، وكان هذا من فضائل الصديق، وثبات قلبه وشجاعته أن قام فيهم وخطب هذه الخطبة.

قال ابن عباس: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا^(٤).

(٤) روى البخاري (4454) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} إِلَى قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144]، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا».

نسوا هذه الآية، حتى ذكّرهم بها أبو بكر الصديق، وثبتهم، فجعل كل واحد منهم يقرأها.

ففي هذه المواقف -أخواتي في الله- في الشدائد الإنسان يكون ضعيفاً، وخاصة إذا كانت في أعزّ شيء على النفس، لكن إذا قيض الله سبحانه وتعالى للمؤمن المصاب من يذكره، من يقوي إيمانه، من يصبره، فإنه يتذكر وينتفع بذلك، وهذا من نعمة وسعادة الجليس الصالح لمن يجالسه.

أخواتي في الله إن الموت أعظم مصيبة على النفس، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: 106].

فلا مصيبة أعظم من مصيبة الموت، ولا كربة أشد من كربة الموت؛ ولهذا حين تبدأ الروح في النزع، تبدأ من أطراف القدم وأطراف اليدين فتسحب قليلاً قليلاً، حتى تصل إلى الترقوة وإلى الحلقوم، كما قال ربنا عز وجل:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)﴾ [القيامة].

إنه إذا بلغت الروح الترقوة وعلم الأهل أنه في الاحتضار يفزعون لعل هناك سبيلاً، لعل هناك عافية وبقية، فيفزعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالدعاء، وينظرون إلى الطبيب، ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ هل من طبيب؟ لو استطاعوا أن يقدوا حبيبهم وصديقهم والعزيز عليهم، لو استطاعوا أن يقدوه بأموالهم وبكل غالٍ ونفيس لقدوه، ولكن لا ينفع ذلك،

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾

إِنَّ الطَّبَّيبَ بِطَبِّهِ وَدَوَائِهِ ... لَا يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَقْدُورٍ أَتَى
مَا لِلطَّبَّيبِ يَمُوتُ بِالدَّاءِ الَّذِي ... قَدْ كَانَ يُبْرِئُ مِثْلَهُ فِيمَا مَضَى
هَلَكَ الْمُدَاوِي وَالْمُدَاوَى وَالَّذِي ... جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنِ اشْتَرَى
الكل مستسلم لقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والكل مآله إلى الفناء،
قال سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ (84)
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85)﴾ [الواقعة].

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾

أي: الروح بلغت الحلقوم، فحينئذ يبرُد الجسم، ويعجز اللسان عن الحركة، ويغطي العقل آلام الموت وسكراته، يتوقف القلب عن النبض، ويُقطع الأوصال، وتُسحب الروح من جسمه، وهي قد امتزجت بالعروق والدم والعظام والعصب، فتسحب منه، وتصل إلى حد الغرغرة حتى تخرج، وقد يحصل شهقة -صوت- عند خروجها، وحينئذ يأخذ الروح ملك الموت ويعطيها الملائكة الموكلين بها

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (61)

[الأنعام].

وليس هناك أحد إلا ويكره الموت ويفر منه، يقول الله تَعَالَى في الحديث القدسي: « وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » رواه البخاري (6502) عن أبي هريرة.

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَكْرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «لَيْسَ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» رواه البخاري (6507)، ومسلم (2684).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ» هذا يكون عند سكرات الموت، أما قبل سكرات الموت فالجميع يكره الموت؛ لأنه تخرج منه روحه أعز شيء عليه، ولأنه سينتقل إلى دار لا يألُفها ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (100) [المؤمنون]، فلا حرج في كراهية الموت قبل الاحتضار.

وروى الإمام مسلم (2685) عَنْ شُرَيْحِ بْنِ هَانِئٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قَالَ: فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا، إِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْنَا، فَقَالَتْ: إِنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»، وَلَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَتْ: قَدْ قَالَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ بِالَّذِي تَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ إِذَا شَخَصَ الْبَصَرُ، وَحَشَرَجَ الصَّدْرُ، وَاقْشَعَرَ الْجِلْدُ، وَتَشَنَّجَتِ الْأَصَابِعُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

وَضَحَّتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ وَالْكَرَاهَةَ لِلْقَاءِ اللَّهِ عِنْدَ
الاحتضار. فهذا الحديث يدل أن الناس في حالة الاحتضار صنفان:
صنف يبشّر بالخير وبالجنة، فيفرح بلقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
وصنف يبشّر بالعذاب، فيكره لقاء الله، وهنا يكون «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ
اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

المحتضر يرى ما لا يرى مَنْ حوله، يرى من الهول ومن الشدائد،
ولكن إن كان من أهل اليقين والإيمان فإنه يختتم له بخير، ويخرج من
هذه الحياة بخير، ويصير إلى خير، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ
تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ
(32) ﴿فصلت﴾.

وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها علامات للموت « إِذَا شَخَصَ الْبَصَرُ » أي: ارتفع جفن العينين إلى الأعلى.
« وَحُشِرَجَ الصَّدْرُ » أي: ترددت الروح في الصدر، الروح ما تخرج بسهولة، ولا تنزع بسهولة، تتردد هاهنا، والصبي لما رفع إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ تَتَقَعَّقُ، أي: الروح تضطرب، تصعد وتنزل، قال: « كَأَنَّهَا شَنْ » وهي القربة البالية، لها صوت، بعض المحتضرين يلاحظ منهم هذا والله، تصعد الروح وتنزل وتكون لها صوت حشحة هنا في الصدر.
« وَاقْشَعَرَ الْجِلْدُ » واقشعرار الجلد: برودته مع رعدة.

(٥) يُقَالُ: سَمِعْتُ لَهُ حَشْحَشَةً وَخَشْخَشَةً: أَيُّ حَرَكَةٍ.

« النهاية » (1/388).

« وَتَشَنَّجَتِ الْأَصَابِعُ » أي: يبست، فحينئذ «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهَ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهَ لِقَاءَهُ».

هكذا أخواتي في الله مآل كل نفس إلى هذا الحال، ومستريح ومستراح منه، فاحرصي أختي في الله أن تكوني من المستريحين، اللهم اجعلنا من أهل الراحة والطمأنينة، روى البخاري (6512) ومسلم (950) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ، فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاخٌ مِنْهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاخُ مِنْهُ؟ قَالَ: «الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالِدَّوَابُّ».

دار الدنيا دار المتاعب والمصائب، دار محفوفة بالمنغصات، حتى وإن درّت النعم لا بد من منغصات، فهي دار تعب وشقاء، فلا تغرنا، وهي عبارة عن ممر إلى الآخرة، مستريح ومستراح منه، فإذا مات المؤمن استراح إذا كان على خير، أما قول بعضهم فيمن مات: ارتاح من الدنيا، فهذا إطلاقه ليس بصحيح، إنما في حق المؤمن، في حق المستقيم ارتاح من تعب الدنيا ونصبها.

وعلمنا حفظكن الله أن الموت يأتي فجأة، فهو لا يأتي نبأ فيستعد له، ولا يطرق الباب؛ ليستعد له

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (34) [لقمان: 34].

وقد كان والدي الشيخ مقبل رحمه الله تعالى في سفره للعلاج في مرض وفاته، كثيراً ما كان يكرر قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِذَا قَضَى اللَّهُ لِعَبْدٍ أَنْ يَمُوتَ بِأَرْضٍ جَعَلَ لَهُ إِلَيْهَا حَاجَةً، أَوْ قَالَ: بِهَا حَاجَةً»^(٦).

فكانه يشير أو يذكر نفسه أنه قد تكون منيته في غير بلده ومركزه، وفي غير مكانه المؤلف المعهود.

(٦) رواه الترمذي (2147) عَنْ أَبِي عَزَّةَ، والحديث في «الصحيح المسند» (1238) لوالدي الشيخ مقبل رحمه الله.

وَلْنَعْلَمَ أَنَّ هُنَاكَ مَوْشِرَاتٍ وَعَلَامَاتٍ لِقَرَبِ الْوَفَاةِ، الْأَجَلَ الْمَحْدَدِ لَا
يُدْرِي أَحَدٌ مَتَى يَنْتَهِي، وَلَكِنْ هُنَاكَ مَوْشِرَاتٍ، مِنْهَا:

كَبَرِ السِّنِّ، نَبِينَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَعْمَارُ
أُمَّتِي مَا بَيْنَ السَّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ، وَأَقْلُهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذَلِكَ»^(٧).

فَإِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ فِي مَرَحَلَةِ الشَّيْخُوخَةِ مِنْ بَعْدِ سِنِّ الْخَمْسِينَ، نَسْأَلُ
اللَّهَ أَنْ يَرْحَمَنَا، مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَرَبٌ مِنْ أَجَلِهِ.
وَمِنْ حِينَ تَبْدَأُ الشَّيْخُوخَةُ تَرَقُّ الْعِظَامُ، وَتَتَعَبُ الْأَجْسَامُ، إِنَّهَا مَرَحَلَةٌ لَا
دَوَاءَ لَهَا.

^(٧) رواه الترمذي (3550) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ فِي
«الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ» (1285) لَوَالِدِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

قال نبي الله زكريا عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)﴾ [مريم: 4 - 6].

﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: ضعف العظم مني، والعظم هو عمود الجسم، إذا ضعف العظم فالباقي تبع له، فيتعب جسمه قد يعجز عن المشي خطوات، هكذا مآل الحياة الأولى -التي انتهت فيها- إلى الضعف ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (54) [الروم].

ومن هذه العلامات:

الشيب، وعادةً الإنسان أنه يسلي على نفسه ويقول: جاءني الشيب وأنا صغير، هكذا عادة الإنسان، ما يحمل همّ الموت ويستعد للموت، فيقول: جاء الشيب وهو صغير، وإلا الشيب هو في الأصل علامة على دنوّ الأجل، قال الشاعر:

عُمَيْرَةٌ ودّع، إِنَّ تَجَهَّزْتَ غَايَا ... كفى الشَّيْبُ والإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا
يعني: كفاه الشيب رادعًا وزاجرًا عن ارتكاب القبائح والتفريط في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه علامة على قرب الأجل، فيستعد للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن العلامات أيضًا: الأحفاد، قال الشاعر:

إِذَا الرِّجَالُ وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا ... وَبَلَيْتُ مِنْ كِبَرِ أَجْسَادُهَا
وَجَعَلْتُ أَسْقَامُهَا تَعْتَادُهَا ... تِلْكَ زُرُوعُ قَدْ دَنَا حَصَادُهَا
يعني: حان الأجل، قرب الأجل.

« إِذَا الرِّجَالُ وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا » صار عنده أحفاد.

« وَبَلَيْتُ مِنْ كِبَرِ أَجْسَادُهَا » صار متعبًا، يشتكي من رُكبه، يشتكي من ظهره، يشتكي من ضعفه، فهذا علامة على قرب الأجل.
 « وَجَعَلْتُ أَسْقَامُهَا تَعْتَادُهَا » الأسقام: الأمراض.
 « تِلْكَ زُرُوعٌ قَدْ دَنَا حَصَادُهَا » حان الأجل.

وإذا كان عندنا مؤشرات وعلامات على قرب الأجل فينبغي أن نسابق وأن نجاهد؛ نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما علم بقرب أجله أكثر من الاستغفار، فسورة النصر

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)﴾ [النصر: 1].

هذه السورة إعلام من الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بقرب أجله، وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعضهم يقول: لماذا عمر بن الخطاب يدني ابن عباس في مجالس الشيوخ، مجالس الكبار، ومعنا أبناء مثله؟

فقال عمر بن الخطاب: إنه من حيث تعلمون، ثم دعاهم مرة، دعا مشيخة بدر وبعض الكبار، دعاهم عمر بن الخطاب وهو لا يريد إلا أن يريهم منزلة عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه، فقال عن هذه السورة سوره النصر: في أي شيء نزلت؟ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله، وقال بعضهم كذا، فقال عمر: ما تقول يا بن عباس؟ قال: نزلت هذه السورة إعلامًا بموت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تعلم^(٨).

فيا أخواتي في الله علينا أن نستعد للقاء الله عز وجل؛ فإن الموت ليس إعدامًا كليًا، فهل من متعظ؟
فلا تلهنا الدنيا، ولا يشغلنا الأولاد والأعمال، الكل سيتخلى عنك ولا ينفعك إلا ما قدمت لنفسك.

(٨) روى البخاري (4430) عن ابن عباس، قال: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يُدْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: إِنَّ لَنَا أَبْنَاءَ مِثْلَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَعْلَمُ، فَسَأَلَ عُمَرُ، ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1]. فَقَالَ: «أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُهُ إِيَّاهُ» فَقَالَ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ.

ففي القبر حينما يحملُ الميتُ الناسُ، يحملونه على أكتافهم، ويضعونه في قبره ولحده، ويهال عليه التراب من جميع الجوانب، لا يدخل معه في قبره ولا يؤانسُه في قبره إلا عمله الصالح، في تلك الحفرة المظلمة الموحشة، التي يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عنها: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»^(٩).

إنها حفرة موحشة، حفرة مظلمة ولا بد منها، فاليوم على وجه الأرض وغداً في جوفها، اليوم أولى وغداً أخرى، اليوم حياة وغداً موت، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)﴾ [طه: 55]. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ ندفنكم في جوفها.

^(٩) رواه الترمذي (2308) عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الحديث في «الصحيح المسند» (909) لوالدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ.

وقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)﴾ [الأنعام: 94].

﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ يترك أمواله، يترك تجارته، يترك قصوره، يترك أولاده، يترك أهله ومن يعز عليه، يترك عبيده، وما يدخل معه في قبره إلا عمله، فالعمل الصالح أخواتي في الله هو الذي يكون نجاة لنا بإذن الله.

ففي تلك الحفرة المظلمة الموحشة، الكل يمشي ويبقى في تلك الحفرة وحيداً، الكل يمشي ويتخلى عنه، أعز إنسان إليه ما يريده بعد الوفاة، فقد صار بعد الموت جثة، وبعد أيام يسيرة وربما ساعات وإذا الرائحة النتنة تخرج منه.

وما أحسن وصية جندب بن عبد الله رضي الله عنه: إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتَنُ مِنَ الْإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يُحَالَ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ الْجَنَّةِ بِمِلءٍ كَفَّهُ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ ^(١٠).

وفيه إشارة إلى أن الإنسان عليه أن يحسن مأكله ومشربه، فلا تطغيه شهوة المشارب والمآكل فيأخذها من غير حلها. روى البخاري رحمه الله تعالى (2059) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، لَا يُبَالِي الْمَرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ، أَمِنَ الْحَلَالِ أَمْ مِنَ الْحَرَامِ».

فأول ما ينتن من الإنسان بطنه، وتأتي الدود وتمر على ذلك الجسم وتأكله وتنهشه، ويسيل منه الصديد، ويأكله التراب حتى ينتهي عدا عُصص الذنب كما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذا مآل ابن آدم، فلا تخذعنا الدنيا أخواتي في الله، علينا أن نقدم لآخرتنا، ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (3) [المتحنة].

لن تجدي حسنة واحدة من أعز الناس عليك في الدنيا، يوم القيامة لن تجديها، لا يمكن لأحد أن يعطيك، هذا يدل على أننا نكون في أشد الحذر في هذه الدنيا، وأن نستعد للآخرة دار القرار، فهناك المقر أخواتي في الله إما الجنة، وإما النار، نعوذ بالله من النار.

علينا أن ندرك لأي شيء خلقنا له، البقرة تدرك لأي شيء خلقت،
ونحن أعزنا الله وأكرمنا بالعقول:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (70) [الأعراف]
أكرمنا الله عز وجل بالعقول وبالإدراك. روى البخاري (3663)،
ومسلم (2388) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقْرَةً قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا، فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَكَلَّمَتْهُ،
فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ، قَالَ النَّاسُ:
سُبْحَانَ اللَّهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنِّي أُوْمِنُ بِذَلِكَ،
وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا»

البقرة العجماء تعرف الشيء الذي خُلقت له، فنحن لأي شيء
خلقنا الله؟ أخلقنا الله عز وجل للشهوات؟ أخلقنا الله سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى للدنيا وزخارفها وزينتها؟! إن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول:
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾ [الذاريات: 56].
فعلينا حفظكن الله أن نقدم لأنفسنا ما تقر به أعيننا، قبل الحسرة
والندامة حيث لا يغني الندم.

وفقني الله عَزَّ وَجَلَّ وإياكن لكل خير، أسأل الله عز وجل أن يجعلنا
من أهل الآخرة، وأسأله سُبْحَانَهُ أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.
والحمد لله رب العالمين.